

الأنثروبولوجيا الحضرية: أي حدود لمقاربة الإنسان؟

Urban anthropology : what limits for the approach of Man?

محمد ذرداري*

derdari@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2019-10-26 تاريخ القبول: 2019-11-19 تاريخ النشر: 2019-12-19

ملخص:

ارتبطت الأنثروبولوجيا بدراسة الإنسان والبحث في تأسيس لحظة وجوده الاجتماعي والثقافي وما يرتبط به من طقوس وعادات وتقاليده ظلت نمطا لحياته التي أنتجها انطلاقا مما توفره هذه البيئة البدائية البسيطة من عناصر كانت مجالا دراسيا للأنثروبولوجيا في شقها الثقافي، ثم تطورت المعرفة الأنثروبولوجيا متجاوزة الحدود الثقافية والاجتماعية للإنسان، لترسم معالم مقارنة جديدة ارتبطت بتنوع مناحي الحياة الإنسانية سواء السياسية منها أو الاقتصادية، كما ظهرت كذلك الأنثروبولوجيا الطبية لتبحث في بيولوجيا الإنسان وما ارتبط بها من جذور وأصول عرقية وعلم للسلاسل للبحث في مادية الإنسان وكذا فيزيائيته، ومن أجل فهم واقع الإنسان ولحظته الراهنة من كونه انتقل من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحضري، ظهرت الأنثروبولوجيا الحضرية، لتعيد الحديث عن مدى مقارنة الأنثروبولوجيا للإنسان وتجاوزها النسق التقليدي إلى داخل المدينة وما تنتجه من أنساق جديدة.

* أستاذ علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم، الجزائر.

الكلمات المفتاحية:

الأنثروبولوجيا ، الأنثروبولوجيا الحضرية، السكن، القبيلة

Astract:

Anthropology has been related with the study of man and research in establishing the moment of his social and cultural existence and its associated rituals, customs and traditions that have been a manner of his life which he was produced basing on what this simple primitive environment provides from the elements that were an area of study for anthropology in its cultural part, then anthropological knowledge developed Transcending the cultural and social boundaries of man. To establish a new approach associated with the diversity of aspects of human life, whether political or economic, as well as the medical anthropology was appear to look at human biology and associated roots or ethnic origins and science of breeds for researching into The material as well as the physiology of human, in order to understand the human reality of the current moment and being moved from the traditional society to urban society. The urban anthropology emerged to re-talk about the extent of the anthropology approach to humans and beyond the traditional manner into the city and the production of new formats

key words:

Anthropology, urban anthropology, housing, tribe

مقدمة:

تأتي هذه الدراسة في إطار الجهود الرامية إلى تفعيل المعرفة الأنثروبولوجية في مجال العلوم الإنسانية باعتبارها معرفة ظلت تعاني التغييب لعدد الأسباب، مما جعل الإسهام فيها محدودا ولا يرقى إلى حجم أهمية هذا العلم الذي قطع أشواطاً كبيرة في البيئات الغربية، نتيجة ازدهار الرصيد المعرفي للأنثروبولوجيا بسبب تعدد استخداماتها والافتقار بأهميتها في تفسير السلوك الإنساني الذي لم يعد الاهتمام به رهين الماضي فقط، بل علم يدرس الماضي لتأسيس معرفة علمية لراهنية التفاعل الاجتماعي بكل أبعاده في حاضر الإنسان، حيث نتج عن هذه الصيرورة التاريخية بروز فروع كثيرة ومتعددة للأنثروبولوجيا، فروع حاولت كلها أن تغطي جوانب السلوك الإنساني انطلاقاً من الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وكذا التاريخية إضافة إلى الأنثروبولوجيا السياسية والجغرافية وكذا الحضرية وغيرها من الأنواع الأخرى التي يزداد نطاقها بزيادة المناحي التي تختص بالإنسان، حتى بلغت معه هذه الأقسام ما تعلق بالأنثروبولوجيا الاقتصادية والتربوية والفيزيائية والطبية وغيرها من الأقسام التي حاولت كلها مقارنة الإنسان من حيث واقعه الحالي وما يدور حوله من عناصر البيئة، بل انطلاقاً من لحظة وجوده وبداية تفاعله مع هذه البيئة التي هي في علاقة تفاعلية بينها وبين الإنسان من خلال جدلية أيهما أسبق وأيها صنع الآخر ويؤثر فيه.

من هنا كانت الأنثروبولوجيا ضرورية لفهم أعمق بالحالة الإنسانية بكل تفصيلاتها مستعينة بفروع عديدة من المعرفة التي تتقاطع معها لفهم شامل للفعل الإنساني سواء ما تعلق بعلم الاجتماع أو علم النفس وغيرها من فروع المعرفة الإنسانية، كما أن هذا التقاطع يضيفي صفة الشمول وليس إلغاء بعض الفروع لفرع الأنثروبولوجيا والاستغناء عنها، هذا الإلغاء الذي ظهر في فترات تاريخية محاولاً التقليل من دور الأنثروبولوجيا، وازداد هذا الفهم تطرفاً معرفياً في البيئات العربية ووصل إلى حد اعتبار الأنثروبولوجيا علماً استعماريًا نتيجة الحملات العلمية التي ازدهرت

في الفترة الاستعمارية "حيث لاقت أطروحة "مونتاني" نموذج الضابط الباحث حول البربر والمخزن تحفظ الوسط الأكاديمي المتنور مما خلق انقطاعا في التوالد النظري" (ليليا بنسالم وآخرون، 1988:ص6) ،

أدى ذلك مع مرور الوقت إلى التقليل من قيمة الأنثروبولوجيا والتقليل من الاعتماد عليها لفهم الإنسان مكتفين بما هو متاح من المعارف الإنسانية الأخرى وتبرير الاعتماد على الأنثروبولوجية بأنها علم أو معرفة تقتصر على ماضي الإنسان ولا تتعدى هذا الأفق الضيق إلى اللحظة الراهنة وواقعه المعاش" إذ أنه يشير إلى أكبر قدر من الموضوعية باستبعاد فكرة مجال مغلق مؤلف من مجتمعات بدائية متوقعة في تاريخ جامد لا قدر له سوى التجديد بشكل متماه أو الموت، (مارك أوجيه، جان بول كولان، 2008، ص:14)

فالأنثروبولوجيا تشكل في نهاية الأمر منهجا يسعى إلى تجميع المعرفة بالإنسان من كافة الجوانب، وذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومترابط عن الإنسان وحياته ونتاجه الحضاري في الماضي والحاضر ومن ثم يكون لديها القدرة أيضا على استقراء أنماط الحياة المستقبلية (حسين فهم، 1988:ص18).

تدخل هذه الورقة البحثية كإضافة لمحاولات التأصيل والتذكير بأهمية الأنثروبولوجيا كقيمة علمية تضاف إلى ما حققته المعارف الإنسانية في سبيل تحقيق هدفها الأساسي المتمثل في مقارنة شاملة للسلوك الإنساني، هذه المقاربة التي لن تتأتى إلا باستحضار صورة الإنسان ماضيا وحاضرا عبر المرور ببوابة الأنثروبولوجيا بشتى فروعها.

كما تأتي هذه الورقة البحثية كمحاولة لإعادة القراءة في نتائج الدراسة الميدانية التي قام بها الباحث في إطار التحضير لأطروحة الدكتوراه حول التحضر وتأثيره على وسائل الضبط

الاجتماعي التقليدي وهي دراسة ميدانية بمدينة آفلو، اعتمدت على مناهج وكذا أدوات جمع المعلومات خاصة ما تعلق منها بالملاحظة بالمشاركة على اعتبار انتماء الباحث لمجتمع البحث الذي يعرف حركية حضرية وتمدنا، شأنه في ذلك شأن المدن الجزائرية، هذه الحركية التي يكون لتأثير البنية التقليدية دور في حدوثها، مما يؤثر على حالة الاندماج الاجتماعي المنشود بين القبائل، وكذا صعوبة تفسير الممارسات الاجتماعية التي تزواج بين الملامح التقليدية والحديثة.

من هنا جاءت هذه الورقة لتركز على الأنثروبولوجيا الحضرية كحقل معرفي من خلاله نتبع السلوك الإنساني في البيئة الحضرية مستحضرين تأثير البنية التقليدية أو القبيلة ككيان انتقل انتقلا اجتماعيا وثقافيا وسياسيا من البيئات التقليدية والجغرافية لبلديات آفلو مجال الدراسة إلى مدينة آفلو كبيئة تحوي هذا التنوع القبلي من جهة وتحوي عناصر التمدن والحضرية.

الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

إن المتصفح في جوانب المعرفة الأنثروبولوجيا يجد أنها ركزت وبشكل كبير على البعد الاجتماعي للإنسان وما يدور حوله من مؤسسات في بيئته وما ينسجه من علاقات اجتماعية في دائرته الضيقة والموسعة اذا تعلق بامتدادات هذه العلاقات مع المجتمع، فالأنثروبولوجيا الاجتماعية تكاد تكون جامعة لكل المعاني المرتبطة بأقسام الأنثروبولوجيا سياسية كانت أو ثقافية أو حضرية، فهي كذلك مادامت تجدد في حياة الإنسان موضوعا لها، وبالتالي حياة هذا الإنسان المدني والاجتماعي بطبعه. فبالإضافة إلى مباحث الأنثروبولوجيا المتعلقة بوجوده البسيط البدائي وما نتج عن هذه البساطة من تكوين للحياة الاجتماعية انطلاقا من العناصر البيئية البدائية، وما رافق هذه المرحلة من تأسيس للروابط الاجتماعية الإنسانية أو الفطرية إن صح التعبير، فالأنثروبولوجيا الاجتماعية كذلك تتجاوز اللحظة التأسيسية لترافق كل مراحل التكوين الاجتماعي للإنسان بل أنها ملازمة له في اللحظة الراهنة.

كما تتشابك الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى حد كبير مع حقل علم الاجتماع على اعتبار أن كليهما يهتم بالبيئة الاجتماعية وعنصرها، لكن الاختلاف يكمن في طبيعة الموضوعات بالنسبة لكلا المعرفتين، فالأنثروبولوجيا تركز على البناء الوجداني للفعل الاجتماعي وكذا أشكاله التأسيسية المنتقلة من الحالة البسيطة إلى الحالة المعقدة كالعادات والتقاليد والبحث في أصولها وأشكالها واختلافها من مجتمع لآخر، في حين أن علم الاجتماع تركز موضوعاته على الروابط والعلاقات الاجتماعية وتأثير المؤسسات عليها سواء كانت هذه المؤسسات معنوية رمزية أو رسمية معترف بها، كما يهتم علم الاجتماع بنتائج ومحددات التفاعل الاجتماعي وما يحدثه على مستوى التغير الاجتماعي، وبالتالي فإن علم الاجتماع يهتم بالبناء والتنظيم الاجتماعي أو ما يعرف بالنسق.

يظهر التشابك أيضا بين أقسام الأنثروبولوجيا نفسها، خاصة بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، فكثير من الأدبيات النظرية لا تقيم فواصل بين القسمين وظل تناولهما واحدا خاصة مع المراحل التأسيسية للأنثروبولوجيا، ويعزى هذا الترابط إلى الصلة الوثيقة بين البيئة الاجتماعية وما تنتجه من أنماط ثقافية تؤسس للفعل الثقافي لأي مجتمع من المجتمعات، فالفصل بين ما هو ثقافي واجتماعي هو من الصعوبة بمكان، ولعل هذا الذي ذهب إليه "كلود ليفي ستراوس" الفيلسوف الأنثروبولوجي الفرنسي المعاصر المشهور بالأنثروبولوجيا البنوية، فقد رأى أن السلوكات الاجتماعية كممارسات الزواج (نظام الزواج) وبناء نظام الأسرة بالخصوص في المجتمعات غير المتحضرة مثل قبائل الهنود الحمر في الأمازون، ترتبط بالإنتاج الرمزي لهذه المجتمعات كاللغة وطرق التعبير، والرقص والإبداعات الفنية، فلا فرق بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، (مصطفى تيلوين، 2011، ص: 35.34).

الأنثروبولوجيا الثقافية:

هي ذلك الفرع من الأنثروبولوجيا الذي يأخذ بعين الاعتبار مختلف السلوكات الإنسانية في جانبها الثقافي، انطلاقاً من أشكال الثقافة في بعدها البسيط والمعقد وما يترتب عن هذين النوعين من أنماط وأنساق تجعل من الأنثروبولوجيا الثقافية تمعن النظر في كيفية تطور هذه الأنساق من شكلها البسيط في البيئات البدائية، أو ما يمكن أن نسميه بالأنساق الأولية وما يميزها من مجموع العادات والتقاليد والطقوس التي تتسم بخاضة البساطة، سواء في بعدها التعبيري أو ما يترتب عن هذا البعد من قوالب رمزية تختلف في المعنى والهدف من مجتمع لآخر، بحسب عناصر البيئة وما تفرضه من إزامات على الأفراد، حيث يعطي أحمد أبو زيد في معرض حديثه عن الأنثروبولوجيا الثقافية مثالا عن اختلاف التعبيرات الثقافية رغم تشابه السلوكات الإنسانية في ظاهرها، حيث يرجع هذا الاختلاف إلى الثقافة أو العرف بقوله: " إذا دخل شخص منكم كنيسة إنجليزية فسوف يرى الناس يخلعون قبعاتهم أو أغطية ووسهم ولكنهم يستبقون نعالهم أما إذا دخل مسجداً في إحدى البلدان الإسلامية فسيجد أن الرجل يخلع نعليه ويبقي غطاء رأسه (أحمد أبوزيد، 1978:ص13).

إن بساطة النسق الثقافي لا يمكن دراسته بمعزل عن بعده المتمثل في التعقيد الذي يعتبر مرحلة تميز المدن أو ما يعرف بالمجتمعات المعقدة، والتي هي بدورها تتخذ سمات ثقافية تختلف عن التعبيرات الثقافية في المجتمعات الأولية أو البدوية، وهنا يبرز الحديث عن ظهور فرع جديد من الأنثروبولوجيا يتقاطع مع الأنثروبولوجيا الثقافية وهو ما يطلق عليه "الأنثروبولوجية الحضرية" التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً.

إن ثراء الفكر الأنثروبولوجي الغربي إن صح التعبير، رافقه ثراء على مستوى المفاهيم والمصطلحات التي شكلت محور هذا العلم، بل أكثر من ذلك، أن هذه المفاهيم تعرف نقاشاً

حادا حول ماهيتها من جهة وحول ما تقدمه للأنثروبولوجيا خاصة الثقافية منها، مما نتج عنه ثراء معرفي لم ينقص من قيمة هذا العلم، فعلى سبيل المثال تظهر الجدلية المفاهيمية في الأنثروبولوجيا من خلال مفهومي الثقافة والحضارة، باعتبارهما مفهومين أساسيين في الأنثروبولوجيا الثقافية. ففي حين يرى الكثيرون أن الثقافة هي ذلك الجزء الذي لا يتجزء من الحضارة، نجد أن هناك اختلاف حول المفهومين في التناول الغربي خاصة بين التناول الفرنسي ونظيره الألماني، حيث يبدو مفهوم الحضارة في التقليد الفرنسي أنها ذلك "الكل المعقد والمتعدد الزوايا، يتضمن حقائق سياسية واقتصادية وتقنية وأخلاقية واجتماعية، وبالتالي كل ما هو تفوق على المجتمعات الأخرى، في حين أن الألمان ينظرون إلى الحضارة على أنها أمر خارجي ونفعي ذو عدة أوجه، غريب عن قيمهم الوطنية، على عكس الثقافة التي يعتبرونها تعبيراً عن فخرهم بأنجازاتهم، فهم بذلك لا يتحدثون عن حضارتهم بل عن ثقافتهم" (آدم كوبر، 2008:ص:13). بالإضافة إلى وجود نقاشات حول عمومية المفهومين ومحدودية تأثيرهما في المجتمعات، وكذلك الحال بالنسبة لمفاهيم أخرى من قبيل الدين، التاريخ، الأخلاق، السياسة... الخ.

الأنثروبولوجيا السياسية:

تعتبر الأنثروبولوجيا السياسية فرعاً مهماً من فروع الأنثروبولوجيا العامة، على اعتبار أنها تتبع مسار النسق السياسي وتدايعات تشكله، مع إبراز ملامحه من خلال دراسة البيئة المتحركة في عناصر نفوذه، أو ما يعرف بمفهوم السلطة السياسية التي تتحكم في الفعل السياسي برمته، سواء على صعيد الأفراد أو الجماعات إذا تعلق الأمر بالمجتمع التقليدي ومظاهر الزعامة وانعكاسها على النسق التقليدي ككل من خلال عاملي الوجهة والنفوذ.

فالأنثروبولوجيا السياسية ميدان دراسي في وسط الأنثروبولوجيا الاجتماعية والسلالة تعكف على وصف وتحليل الأنساق السياسية (بنى، سيوررات، تصورات) الخاصة بالمجتمعات المعاصرة

بدائية قديمة، إنها أداة اكتشاف لنظم التفكير والرموز التي تستند إليها، وقد وضع "مونتسكيو" نفسه مع المؤسسين الأوائل للأنثروبولوجيا السياسية عندما أعد مفهوم الاستبداد الشرقي (مقترحا نموذجاً مثالياً بمفهوم "ماكس فيبر"، (جورج بالاندييه، 2007، ص: 17.16).

ولعل الأنثروبولوجيا السياسية تجدد نفسها ملزمة أكثر من علم الاجتماع السياسي أو المعرفة السياسية في تتبع المظاهر التقليدية، سواء داخل النسق التقليدي (القبيلة) أو النسق الحديث (المدينة)، هذه الأخيرة التي لا يمكن الجزم بتأثير مؤسساتها على الفعل السياسي الذي يبدو أنه يعيد إنتاج بعضاً من مظاهره التقليدية برغم تعقد المدينة ونزوعها المستمر إلى التطور والتحضر الذي تذوب فيه البنيات التقليدية، مما يعزز ويؤزم في نفس الوقت من دور الأنثروبولوجيا السياسية في محاولتها مقارنة الفعل السياسي في البيئة الحضرية المتمثلة في المدن، هذه الأخيرة التي مازالت تستند لتأثير الجماعات الضاغطة في صنع المشهد السياسي.

هذه الجماعات التي ما انفكت تمارس فعلها بحضور مفهوم آخر هو الزبونية السياسية التي تعتبر آلية تقليدية تهدف إلى الاستثمار في الزعامات من خلال علاقات القرابة الدموية والمصالح الضيقة التي لا تتعدى الحدود الوهمية للقبيلة حين تتركز داخل المدينة، ليس كحدود جغرافية ولكن كتمثيلات وتصورات وكممارسات لفاعلين اجتماعيين يدينون بنزعتين، واحدة ظاهرة من خلال تأثير المدينة ومؤسساتها، وأخرى باطنة مضمورة تخفي وراءها تأثير البنية التقليدية كحال الزبونية السياسية، التي يتحدث عنها منصور مرقومة؛ "إن الزبونية تقتضي أن يعمل الزعيم (المرشح تحديداً) هو شخصياً أو بواسطة وسطاء أو حلفاء، على مبادلة الخدمات الاقتصادية والاجتماعية والصحية والإدارية بالولاء السياسي، والدعم من طرف المتحيزين أو الأتباع وتتلخص المعادلة في (ولاء=خدمات=تصويت=سلطة)، يجب على المرشح لكي يتكمن من تجسيد هذه المعادلة أن يتمتع بنفوذ واسع في الحقل السياسي والإداري والاقتصادي والاجتماعي والديني والطائفي إلى جانب الاستقطاب العائلي والمناطقي والجغرافي. (منصور مرقومة، 2011، ص: 305).

فالأنثروبولوجيا السياسية تحاول تفكيك الفعل السياسي إلى مجموعة من التظاهرات المرتبطة بهذا الفعل، هذه التظاهرات تترجم على شكل ممارسة سياسية داخل المدينة تستند في تفسيرها

إلى الأنثروبولوجيا السياسية التي ترى في موضوع المشاركة السياسية موضوعاً مهماً في الحياة السياسية، هذه المشاركة التي تقف فيها الأنثروبولوجيا مفسراً لواقعها وملاحظها وعناصر التحكم فيها، خاصة ما تعلق بالمشاركة السياسية للمرأة في البيئات العربية، والتي تبقى إلى حد كبير مرهونة بتأثير البنية التقليدية من خلال بروز الهيمنة الذكورية حيال المرأة حتى في حال إدلائها بصوتها مع كل موعد سياسي، حيث تتأثر إرادتها بتدخل الرجل من خلال هذه السلطة التقليدية الممنوحة له، والتي من خلالها تذوب الإرادة السياسية للمرأة، مما يعيد الحديث عن دور الأنثروبولوجيا السياسية من أجل مقارنة موضوعية للحياة السياسية وما يشوبها من تأثير للنسق التقليدي الذي لم يعد يعترف بالحدود الجغرافية للمجتمع التقليدي ممثلاً في القبيلة.

الأنثروبولوجية الحضرية:

إذا كانت الأنثروبولوجيا الثقافية محوراً الإنسان ككائن ثقافي يعيش في بيئات ثقافية من إنتاجه، فإن هذه البيئات رغم أهميتها بالنسبة للأنثروبولوجيا الثقافية، فإن الأنثروبولوجيا الحضرية تعنى بالإنسان كباقي التخصصات الأخرى من الأنثروبولوجيا، لكنها تتميز عنها بأنها تأخذ علاقة الإنسان بالمجال أو الفضاء الذي ينتج فيه كل المواقف والسلوكيات، وبالتالي كل أشكال التفاعل الاجتماعي. فالأنثروبولوجيا الحضرية يصنفها الكثيرون على أنها ذلك الشكل من الدراسة الذي يأخذ في الحسبان الأنثروبولوجيا بكل أنواعها، أو هي ذلك النوع من الدراسة الذي تتقاطع معه جميع فروع الأنثروبولوجيا، باعتبار أن المجال الحضري هو المجال الذي يحوي الإنسان، وما يدور حوله من عناصر البيئة بكل أنواعها، وما يقوم بإنجازه مع الآخرين الذين يتقاسمون معه هذا المجال.

كما تتخذ الأنثروبولوجيا الحضرية من المدن ونشأتها وتطورها موضوعاً أساسياً للدراسة والبحث، لأن المراحل والأحداث التاريخية هي بدورها تؤثر على التاريخ الإنساني، مما يؤثر على

المدن خاصة وما تنتجه من علاقات اجتماعية تختلف باختلاف أحجام هذه المدن ومراكزها وكذا تأثيرها في دورة التاريخ والحضارة، دون أن يغفل هذا النوع من الدراسة تسليط الضوء على العلاقة بين الريف والمدينة، هذه العلاقة الأزلية التلازمية التي ظلت تميز البشر منذ أن وجدوا في تجمعات وصفت بالريفية والحضرية، وما ينتجه كل مجتمع سواء كان ريفيا أو حضريا من علاقات وأنظمة اجتماعية تختلف بحسب طبيعة كل مجتمع، مما يجعل من المجتمعين محل تتبع من طرف الأنثروبولوجيا الحضرية.

اهتمامات الأنثروبولوجيا الحضرية:

بالإضافة إلى ما جاء حول طبيعة الأنثروبولوجيا الحضرية سابقا، يضاف إلى ذلك مجموعة من الاهتمامات التي تعتبر موضوعات أساسية لتأسيس معرفة أنثروبولوجية في جانبها الحضري، ولعل من الواجب التنبيه إلى أن الأنثروبولوجية الحضرية تأخذ بعين الاعتبار المدن كوحدات أساسية للتحليل أي أنها تعنى بالممارسات التي تكون في الفضاء الحضري ومن هنا تكمن صعوبة مقارنتها أنثروبولوجيا إذا ما قورنت بمقاربة الأنثروبولوجية الريفية أو القروية للمجالات الريفية المحدودة، هذه الأخيرة التي تعتبر مجالا لظهور كل ما هو تقليدي ممثلا في نوع البناء الاجتماعي الذي يميز هذه الأوساط من عادات وتقاليد وطقوس وممارسات، هي في حقيقة الأمر موضوعات أساسية للأنثروبولوجيا ككل وخاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

لكن هذه الصعوبة في مقارنة الواقع الحضري في مقابل سهولة الواقع الريفي لم تجعل الأنثروبولوجيا الحضرية خالية من مقاربات علمية موضوعية و متخصصة بدليل بحث ومعالجة موضوعات تتعلق بما يدور في الفضاء الحضري والتي من بينها:

تبحث الأنثروبولوجيا الحضرية أساسا في كل ما هو تقليدي مرتبط بالإنسان، خاصة الإنسان الحضري الذي يحيا ويعيش حياة التمدن والحضرية، لكن تعامله مع البيئة الحضرية يخضع لعدة عوامل تكون أساس تفسير هذه العلاقة، أي بين الإنسان ومجاله الحضري، ومن بين هذه العوامل تأثير الإثنيات المتواجدة في التجمعات الحضرية على طبيعة البناء الاجتماعي الحضري ككل، من هنا تحاول الأنثروبولوجية الحضرية البحث في ماضي الأفراد والتفتيش عن الجذور العرقية و مدى تأثير هذا المعطى على الممارسة والثقافة بكل تفصيلاتها، بالإضافة إلى حجم التأثير الذي تلعبه هذه الانتماءات الإثنية المختلفة عند اجتماعها في مجال جغرافي حضري واحد وما تفرزه من اختلافات وتوافقات، والبحث فيما إذا كانت هذه الانتماءات الإثنية عامل اندماج حضري أم عامل اختلاف وتضاد، فالبحث في الإثنية ضروري أو البحث في كل ما هو أقلية داخل المدينة سواء كانت هذه الأقليات تتمايز على أساس طائفي أو قبلي أو عرقي بالمعنى السلافي البيولوجي للكلمة أو بحسب ما هو مشاع حول العرق والإثنية في أبحادي الفكر الغربي.

هذا الحديث كله يأتي في ظل واقع ينم عن "وجود العديد من الإثنيات داخل المدن تعيش وفق نمط اجتماعي وتعمل على المحافظة على ثقافتها وخصائصها، مما يعطي الانطباع بأن هذه المجموعات الإثنية كلما كان استمرارها داخل المدن، كلما أدى ذلك إلى صعوبة اقتلاعها نتيجة تمسكها بمواطنها الأصلية حتى ولو كانت هذه المواطن مدنا"، (جاء عمر، 1998، ص: 62)

فبالإضافة للجماعات العرقية يمكن كذلك تتبع التباين الاجتماعي والثقافي للمدن من خلال محورين أساسيين يمكن اعتبارهما منطلقات للتفسير الأنثروبولوجي الحضري وهو ما يتمثل في الجيرة السكنية، وجماعات العمل.

حيث يمكن إعمال المعرفة الأنثروبولوجية الحضرية في موضوع المجاورة السكنية من خلال اعتماد هذه الأخيرة وحدات اجتماعية صغرى في المدينة، هذه الوحدات تتمايز على أسس

اجتماعية اقتصادية وثقافية، فيمكن التطرق إلى واقع المجاورة السكنية في المناطق الحضرية المتخلفة ومناطق الإسكان الشعبي دون إغفال العامل العرقي الذي ذكرناه سابقا وما يفرزه من أنماط اجتماعية تكون ميزة للمجاورات السكنية أو الأحياء السكنية داخل المدينة، مما يجعل العلاقات الاجتماعية يتراوح وجودها بين العلاقات الأولية المبنية على الروابط الدموية وما تنتجه من أنساق اجتماعية وبين العلاقات الثانوية وما تنتجه هي الأخرى من أنساق اجتماعية، إضافة إلى كل ذلك تطرح مسألة التماسك الاجتماعي ودرجته داخل المجاورة السكنية الحضرية، هذا التماسك الذي يخضع لطبيعة الطبقة السائدة في المجاورة السكنية ويعتبره "لويس ويرث" أي التماسك الاجتماعي "أنه فقد في البيئة الحضرية وأصبحت جماعات الحوار في هذه البيئة فاقدة لمغزى الأشكال البسيطة والتقليدية للمجتمع"، (السيد عبد العاطي السيد، 2003، ص:122) فالحضرية قد أضعفت إلى حد بعيد المدى من العلاقات الوثيقة التي كانت تتسم بها هذه الجماعات الأولية.

القبيلة وملامح الأنثروبولوجيا الحضرية:

إن اهتمامات الأنثروبولوجيا الحضرية لا يمكن مقارنتها إذا تعلق الأمر بواقع المدن بدون المرور عن القبيلة التي تعتبر سمة لا يمكن فصلها في أي محاولة لتفكيك مجتمع المدينة خاصة المدينة العربية، ويعود ذلك إلى أن المجتمعات العربية عرفت منحى واحد إذا تعلق الأمر بالقبيلة التي كانت جزءا لا يتجزأ من تركيبها الاجتماعية، كما أن القبيلة حاضرة في كل الأحداث المتعاقبة على الأقطار العربية والتي لعبت فيها القبيلة دورا بارزا في بلورة ملامحها عبر التاريخ، مما جعلها محل تتبع ودراسة من عديد المقاربات التي جعلت من القبيلة محل اهتمام، فظهرت تبعا لذلك جهود العديد من المدارس والنظريات نذكر منها مثلا، المدرسة الكولونيالية التي ارتبطت بفترة الاستعمار، هذا

الأخير الذي جعل من الدراسات الكولونيالية مبدأ علميا أنثروبولوجيا لمقاربة مجتمع القبيلة في بلدان الشمال الإفريقي بداية من الجزائر مرورا بتونس والمغرب.

ظهرت دراسات حول البنية الاجتماعية القبلية وطبقة الفلاحين وكذا العادات والتقاليد وما تعلق بالمرأة وغيرها من الموضوعات، وكلها دراسات وإن قدمت وصفا للواقع التقليدي والقبلي، إلا أنها عملت على تعميق المعرفة بقصد التغلغل والتحكم في المجتمعات المستعمرة، فعملت على مقارنة التنظيم القبلي والتراتبية السياسية المتعلقة بالسيطرة والزعامة في المجتمع القبلي، كما انتهجت منحى الإثني والعرقى وجعله أساس تفسير العلاقات الاجتماعية وبعض الأحيان جعله سبب التخلف والتراجع على مستوى سلم الحضارة، ولعل هذا الذي سبب نقدا للكولونيالية فيما بعد مع أعمال "جاك بريك"، وعجل بظهور الانقسامية وما تبعها ممثلا في المدرسة الأنجلوساكسونية.

وبدون الرجوع للاسهامات النظرية وما شابها من تأزم معرفي في بعض الأحيان تبقى الأنثروبولوجيا الحضارية حاضرة وبقوة في المشهد الاجتماعي للمدن العربية، على اعتبار أن الفصل بين البنيتين التقليدية والحديثة من الصعوبة بمكان، مما يجعلنا أكثر استنادا للأنثروبولوجيا الحضارية كمحاولة للفصل بين المجتمعين التقليدي والحديث داخل المدينة التي تشهد تداعيات كلا المجتمعين، يظهر ذلك على مستوى الممارسة وكذا الفعل الاجتماعي الذي يصعب تصنيفه بين ما هو تقليدي وحديث في ظل تشابك البنيتين، وذلك ما يقاربه الباحث "مرقومة منصور" حول القبيلة من حيث هي كيان متعدد الأنساق ينعكس على الممارسة والفعل الاجتماعي المتعدد الأوجه بين الاجتماعي والثقافي وكذا السياسي، وتزداد هذه المقاربة أكثر تفسيريا وفهما حين يتعرض الباحث إلى التقابل بين القبيلة ككيان تقليدي، وبين المدينة ككيان حديث من حيث علاقة التأثير والتأثر بين النسقين داخل المدينة، مستخلصا من خلال دراسته الميدانية واقع هذا التقابل حين يقول "إن ثبات النظم التقليدية واستمراريتها ومقاومتها للنظم الحديثة من أجل المحافظة على مكانتها، أو

على الأقل التعايش مع هذه النظم، يكرسه تمسك المجتمع المحلي بموضوع الدراسة بكل ما يرمز إلى ما هو موروث أو التعصب لهذا الموروث في أحيان كثيرة" (منصور مرقومة، 2015، ص: 142، 143)

السكن كفضاء للمعرفة الانثروبولوجية:

يعتبر السكن من بين أهم الفضاءات حضورا للمقاربة الاجتماعية والانثروبولوجية نظرا لاشتماله على أشكال متعددة من العلاقات الاجتماعية، ليس فقط ما تعلق بالتي يحويها ويتجهها بل ما يتعداها خارج هذا الفضاء الضيق في المجتمع ككل، فالسكن يعتبر مرآة عاكسة لحركية المجتمع، ويلعب دورا مهما في تشكيل العديد من العلاقات الاجتماعية، فبالإضافة لمكونه الوجداني الذي يميز أفرادها، يعتبر كذلك كيانا اجتماعيا واقتصاديا، بل يتعدى ذلك ليصبح كيانا سياسيا حين تعتبر الأسرة ممثلة في أفرادها محل مراهنات سياسية لكسب قوة تصويت ترجح كفة المترشحين بحسب قوة كل واحد منهم، ودرجة تأثيرهم بحسب طبيعة المجتمع وما يتحكم فيه من بني تتراوح بين التقليدي والحديث.

كما ظل السكن ميدانا يحتزل كل تناقضات المجتمع ومجالا لتمرير سياسات الدول ومنطلقا لصناعة السياسات الحضرية، وأكثر من ذلك معيارا لمدى تحقيق الرفاهية الاجتماعية التي تنشدها الحكومات وتسعى لتحقيقها كشكل من أشكال التوافق بين الفرد ودولته، و يتعدى كل ذلك ليغدوا في الأقطار العربية أسلوبا من أساليب إحلال السلم الاجتماعي وشرائه في بعض الأحيان، مما انعكس على السياسات الإسكانية وتحولت من كونها تهتم بالمسكن من حيث بعده المتعلق بالكيف ودرجة تحقيق أفضل لتنوعية الحياة، إلى أن أصبح يقتصر على الكم وعدد ما ينجز من سكنات لتلبية الطلب المتزايد على السكن.

لكل هذه الاعتبارات وغيرها لاقت الأبحاث المتعلقة بالمسكن رواجاً كبيراً، فتوجهت الأنثروبولوجيا الحضرية إلى التركيز على المسكن وما ينتج من علاقات اجتماعية نتيجة التفاعل الحاصل بين أفراد الأسرة الواحدة أو بين أسر الحي الواحد، كما اهتمت الأنثروبولوجيا الحضرية أكثر بعلاقة البيئة المادية للمسكن وبالأفراد الشاغلين لهذه البيئة، فهذا التفاعل هو نتاج لمجموع التصورات والمعتقدات التي يدين بها الأفراد حول السكن وكيف ينعكس ذلك على العلاقات بهذا الفضاء الذي تختلف ملامحه باختلاف طبائع المجتمعات، فتجد السكن الجماعي الذي يحوي مجموعة من الأسر في مسكن واحد أو مجموعة مساكن تحوي عوائل يجمعهم حي واحد تربط بينهم علاقات الجيرة، هذه الأخيرة التي تعتبر موضوعاً مهماً من موضوعات الأنثروبولوجيا الحضرية، كما نجد السكن الفردي الذي يحوي أسراً في أغلبها نوية التركيب في مقابل الأسر الممتدة التي تشغل النوع الأول من السكنات.

وحسب الأسرة ونوع السكن، تتحدد الخصائص الاجتماعية التي تبقى محل استحضار لكل من البنية التقليدية أو التي انتقلت من هذه التقليدية وتتوق للحدث والتحضر والأخذ بأسباب العيش الحضري داخل المدن، وبين النزعتين يتركز اهتمام الأنثروبولوجيا الحضرية التي تهتم بشكل أساسي بتكوين الفعل الاجتماعي والثقافي داخل المدينة وتتبع مساراته بداية بنسقه التقليدي، ومروراً بمراحل الانعتاق من التقليدي نحو الحديث مركزة (الأنثروبولوجيا الحضرية) على مآل التقاليد والعادات المرتبطة بمختلف المناسبات سواء كانت فرحاً أو حزنًا من خلال طرق إحيائها ومدى ارتباطها بالوجدان الجمعي للأفراد، والأهم من ذلك علاقة المسكن بإحياء التقاليد، حيث نجد أن الأفراد يستحضرون الأبعاد التقليدية للمسكن حتى في تصاميمهم وقبل إنشاء سكناتهم، فهم يحرصون على أن يكون السكن خاصة الفردي منه (الحوش) واسعاً يليق بمناسبات الفرح والفرح، فتجدهم حرصين على توسعة قاعة استقبال الضيوف وكذا فناء المنزل على اعتبار أن الفناء يكون مسرحاً لتجسيد عديد الأنشطة التقليدية.

ويعتبر المسكن عاملاً مهماً في إحياء الطقوس والعادات داخل المجتمع الحضري، بل أن هذه العادات والطقوس تتأثر بالمسكن الحضري، هذا الأخير الذي يتحكم في درجة وقوة استحضارها، فيختلف هذا الاستحضار بين المسكن الحضري الفردي ونظيره الجماعي الذي يحوي الأسر الممتدة التي لا تجد في الخصائص الحضرية داخل المدينة مانعاً أو عائقاً لاستحضار البنية التقليدية، ولعل هذا الذي أدى إلى اعتماد الأنثروبولوجيا الحضرية لمحاولة مقارنة أو بالأحرى فهم هذه الازدواجية المتعارضة بين المدينة وما توفره من مؤسسات حديثة، جاءت كبديل لكل ما هو تقليدي، وبين الممارسات التقليدية داخل المدينة التي تقاوم درجة التحضر الجارف والساعي لقلب البنية التقليدية إلى أخرى حديثة فرضها التحضر، لكن ما هو ملاحظ أن المسكن وما يرتبط به من مخيال جماعي، مازال يقاوم درجات التحضر، فبالرغم من اعتماد الحضرية كنمط وأسلوب حياة، مازال المسكن محافظاً على رمزيته الاجتماعية التقليدية من خلال التصور التقليدي الذي يكونه الأفراد حول السكن، فيطلق عليه تفاؤلاً أو تشاؤماً مصطلح "العُتْبَة"، فيقال في العرف "عتبة" مبروكة أي جالبة للبركة والراحة والرزق، من خلال مؤشرات محددة ومرتبطة بهذه الأوصاف أو يقال تشاؤماً "عتبة مشؤومة" كتعبير عن حالة الحزن والفقر والمشاكل العائلية داخل هذا المسكن.

فالأنثروبولوجيا الحضرية تبحث في كل ما هو تقليدي داخل المدينة من خلال تتبع الممارسات الاجتماعية للأفراد، هؤلاء الذين يجدون أنفسهم أمام محاولات إعادة إنتاج للبنية التقليدية داخل المجتمع الحضري، كمحاولة لتجاوز صعوبات المدينة من حيث التكيف والاندماج داخل هذا المجتمع الجديد، الذي أصبح فيه التطور سمة تطبع المدن، مما أدى إلى تحديث في مناحي الحياة من حيث السهولة اختصار المسافات بفعل التقنية والثورة الرقمية التي تحول معها العالم إلى قرية صغيرة بسبب شبكة التواصل وقنوات الإعلام والاتصال.

لكن في المقابل تبرز إشكالية مرافقة لهذا التطور الهائل، تتمثل في منظومة القيم التي أفرزتها هذه التقنية داخل المدن، والتي كان لها الأثر البالغ على السكن الذي تأثر بهذا التطور إن على مستوى البناء أو الوظيفة، نتيجة تطور تقنيات الإنشاء والبناء من استعمال لوسائل ومواد جديدة وتصاميم حديثة مستمدة في أحيان كثيرة من النسق المعماري الأوروبي، وتبعاً لذلك، أصبحت القيم الاجتماعية بما فيها قيم الإسكان محل تجاذب بين استمرارها من حيث المحافظة عليها أو تعديلها وجعلها أكثر ملاءمة لروح التقدم والتطور، أو إلغائها عن طريق تعويضها ببدائل جديدة مثلة في القيم الحداثية، هذه الأخيرة التي ليست على قدر واحد من القبول والأخذ بها بين فئات المجتمع الواحد الذي يقع هو الآخر فيما تسميه "بورقية رحمة" بأزمة القيم *La crise des valeurs*.

فبين الرفض والقبول تتموقع حركة الأجيال بين جيل تقليدي وجيل حديث لكل منهما تماثلاته وتطلعاته المتصادمة في بعض الأحيان كشكل من أشكال صراع الأجيال، وتكتد لواقع اجتماعي تقليدي يبدو في نظر الأجيال الجديدة أنه حان الوقت لقلب منظومة القيم وتكييفها مع متطلبات الحداثة ومستلزمات اللحظة الراهنة، مع الأخذ بعين الاعتبار قيمة اللحظة الماضية ومحمولها الأخلاقي القيمي الذين لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستهانة به وجعله في خانة النسيان والتجاهل بين عشية وضحاها، وهو ما تذكره "بورقية رحمة" في معرض حديثها عن القيم التقليدية إذ تقول: "يمكن أن تدرج بعض المفاهيم التي تستحضر عبر "نوستالجيا" كبار السن وتستخدم إلى يومنا هذا للحديث عن قيم الأمس، التي تشكل معجم قيم السجل التقليدي، يوجد هناك فهرس للقيم التي تنتمي إلى السجل الثقافي التقليدي، مثل القدرة على التحمل والعدالة والطاعة والرضا والمعقول و"النية" و"الكلمة" والخير... الخ، يتألف هذا المعجم من القيم الأخلاقية التي تأتي من المستوى الفردي ضمن الشبكة الأسرية في علاقة مع الجماعة والمقدس لتشكل خزاناً غنياً للقيم". (Rahma Bourqia, 2010 , p115)

فالانثروبولوجيا الحضرية تبحث في طبيعة هذا الصراع القيمي بين الأجيال محاولة تفسيره انطلاقاً من اللحظة التقليدية التي تعتبر لحظة التأسيس للكيان الاجتماعي، وما يميزها من استحضار للعادات والتقاليد بين إحيائها وكذا جعلها أسلوب حياة، مروراً بكل عوامل التفتت والتفكيك التي تمارسها الحياة الحضرية على هذه البنية التقليدية وأثر ذلك على الفرد ككيان شخصي في إطار نسق اجتماعي في علاقة تأثير وتأثر بين الفرد وامتداده الاجتماعي، هذه العلاقة التي تنعكس سلباً أو إيجاباً على الفضاء محل السكن وعلى المدينة ككل، فتظهر الفاعلية الحضرية في مقابل الهامشية، كما يظهر الاغتراب الحضري في مقابل الواقعية الحضرية في حال التناغم والتوافق بين الفرد ومحيطه الحضري.

خاتمة:

من خلال ما سبق يمكن القول أن الأنثروبولوجيا بكل فروعها أضحت معرفة لا يمكن الإغفال عنها حين مقارنة أي ظاهرة في الحقل الإنساني، مستعنيين في ذلك بالإضافة إلى الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع وعلم النفس وغيرها من العلوم الأخرى، مما يزيد من قناعة أن الأنثروبولوجيا لم تعد تلك المعرفة التي ترافق لحظة تأسيس السلوك الاجتماعي والثقافي للإنسان وتبحث في بدائية الإنسان ومراحل تشكل سلوكياته خاصة الثقافية منها، بل تعداه إلى لحظته الراهنة وما لحقها من تحولات مست النسق المعيشي للإنسان اجتماعياً وثقافياً اقتصادياً وسياسياً، فتتنوع تبعاً لهذه التحولات مناحي دراسة الإنسان من كل جوانبه، فظهرت الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية والسياسية بل تعداه إلى غيره، فظهرت الأنثروبولوجيا الطبية والبيولوجية وكذا الفيزيائية، وانتقلت إلى دراسة الإنسان الحضري حين انتقاله من البيئة والمجتمع البدوي وما ينتجه من أنساق تقليدية إلى مجتمع حضري متمدن، فأخذت الأنثروبولوجية الحضرية حظها من دراسة

الإنسان الحضري الذي يعيش داخل المدينة، عن طريق مقارنتها للأشكال و القوالب الثقافية التي أفرزتها الحضرية والتحضر وكيف انعكست على الفرد ومحموله الثقافي ذو النزعة التقليدية.

اهتمت (الأنثروبولوجيا الحضرية)، اهتماما أساسيا بتتبع تأثير الحضرية على البنية التقليدية ودراسة حالة الامتزاج في كثير من المجتمعات التي جعلت من الأصالة ومكوناتها التقليدية معطى أساسي يتأقلم مع الحداثة ممثلة في التحضر والحضرية، كما لم تغفل الأنثروبولوجيا الحضرية عن دراسة حالة الانتكاس التي يفرزها هذا الامتزاج بين القديم والحديث وكيف يترجم ذلك على أرض الواقع من ممارسات غريبة لا تمت للثقافة الحضرية بأي صلة، كما أنها سلوكيات انتعقت من رقابة البنية التقليدية ذات السلطة والتي ميزت المجتمع التقليدي، لنجد أنفسنا أمام نوع ثالث من التفسير الذي يسعى بجهد إلى إيفائه حقه من الوضوح والتحليل بفضل جهود الأنثروبولوجيا الحضرية إن على المستوى النظري أو في الشق المتعلق بالمنهج.

إن هذه الورقة بقدر ما أحاطت ببعض جوانب المعرفة الأنثروبولوجية، فإنها حاولت إعادة التذكير بحقيقة محورية ارتبطت بالمعنى الحقيقي للأنثروبولوجيا، هذه الحقيقة المتمثلة في لاهودية المقاربة الأنثروبولوجية للإنسان" فعلم الإنسان الذي اقتصر في سنوات سابقة على دراسة المجتمعات البعيدة والبدائية (التاريخية)، وعلى دراسة التقليدي في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية... الخ لم يعد يكفي بذلك، بل تعداه إلى دراسة المجتمعات المعاصرة" (منصور مرقومة 2020: ص 165)، مستعينة في الآن ذاته بمجموع الفروع المتعددة التي أحاطت بالإنسان سواء ما تعلق بكيونته المادية من علم للسلاسل والأعراق والبيولوجيا أو ما تعلق بكيونته الاجتماعية والمعنوية ومصير بيئته الرمزية المستمدة من الثقافة والنسق الاجتماعي، في ظل الكم الهائل من العادات والتقاليد والطقوس التي تحيط بالإنسان، مشكلة بذلك ثقافته التي تحوي كل شي صنعه ويفكر فيه.

قائمة المراجع :

- 1- أحمد أبوزيد، محاضرات في الأنثروبولوجيا الثقافية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، 1978.
- 2- آدم كوبر، الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، ترجمة تراحي فتحي سلسلة عالم المعارف، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008.
- 3- السيد عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، الجزء الأول، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2003.
- 4- جاد عمر، المتغيرات السكانية والصراعات السياسية، مجلة السياسة الدولية، العدد 119، مركز الدراسات الإستراتيجية، مصر، 1988.
- 5- جورج بالاندييه، الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة علي المصري، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع لبنان، 2007.
- 6- حسين فهميم، قصة الأنثروبولوجيا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1988.
- 7- ليليا بنسالم وآخرون، الأنثروبولوجيا والتاريخ، حالة المغرب العربي، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 1988.
- 8- منصور مرقومة، المجتمع المدني والثقافة السياسية، مجلة دفاتر السياسة، عدد خاص، جامعة قاصدي مرباح ورقلة الجزائر، 2011.
- 9- منصور مرقومة، القبيلة والسلطة والمجتمع في المغرب العربي، مقاربة أنثروبولوجية، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2015.
- 10- منصور مرقومة، أنثروبولوجيا المدينة والفضاءات الحضرية، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2020.
- 11- مصطفى تيلوين، مدخل عام في الأنثروبولوجيا، دار الفارابي، ط1، لبنان، 2011.
- 12- مارك أوجيه، جان بول كولايين، الأنثروبولوجيا، ترجمة جورج كتوره، دار الكتاب الجديدة المتحدة، لبنان، 2008.

13- Rahma Bourqia Valeurs et changement socia a Maroc, Quaderns de la Méditerranèa, 2010.